

الحق المحترم

بَحْثٌ فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ
عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ

تأليف

فضيلة الشيخ

صفي الرحمن الباركفوري

جامعة السلفية - الهند

البحث الفائز بجائزة الأول لمسابقة السيرة النبوية
التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي

دار احياء التراث

كلمة

معالي الشيخ محمد علي الحر كان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين، خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين، بشر وأنذر، ووعد وأوعد، أنقذ الله به البشر من الضلالة، وهدى الناس إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور، وبعد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة، وهدى المسلمين إلى محبته، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ ، وتتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه، ونشر سيرته العطرة ﷺ ، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها « كان خلقه القرآن، والقرآن كتاب الله وكلماته التامة، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦ هـ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية :

- ١ - أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .
- ٢ - أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل .
- ٣ - أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة

البحث .

٤ - ان يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت.

٥ - أن يكتب البحث بخط واضح، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة.

٦ - تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى.

٧ - يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الثاني ١٣٩٦ هـ، وينتهي موعد القبول بغرة

محرم ١٣٩٧ هـ.

٨ - تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف

مختوم، وتضع الأمانة عليه رقماً تسلسلياً خاصاً.

٩ - تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن.

فكان هذا الإعلان حافزاً لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ،

واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية

والأردية وأية لغة أخرى.

وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات، وقد بلغ عددها واحداً

وسبعين ومائة بحث منها:

٨٤ بحثاً باللغة العربية، ٦٤ بحثاً باللغة الأردنية، ٢١ بحثاً باللغة الإنجليزية، وبحث

واحد فقط باللغة الفرنسية، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية.

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب

استحقاق الفائز للجائزة، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي:

١ - الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفي الرحمن المباركفوري من الجامعة السلفية

بالهند، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي.

٢ - الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجيد علي خان من الجامعة المحلية الإسلامية

نيودلهي الهند، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي.

٣ - الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية

بباكستان، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي.

٤ - الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمود من جمهورية مصر

العربية، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي.

٥ - الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة/ المملكة العربية السعودية، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي.

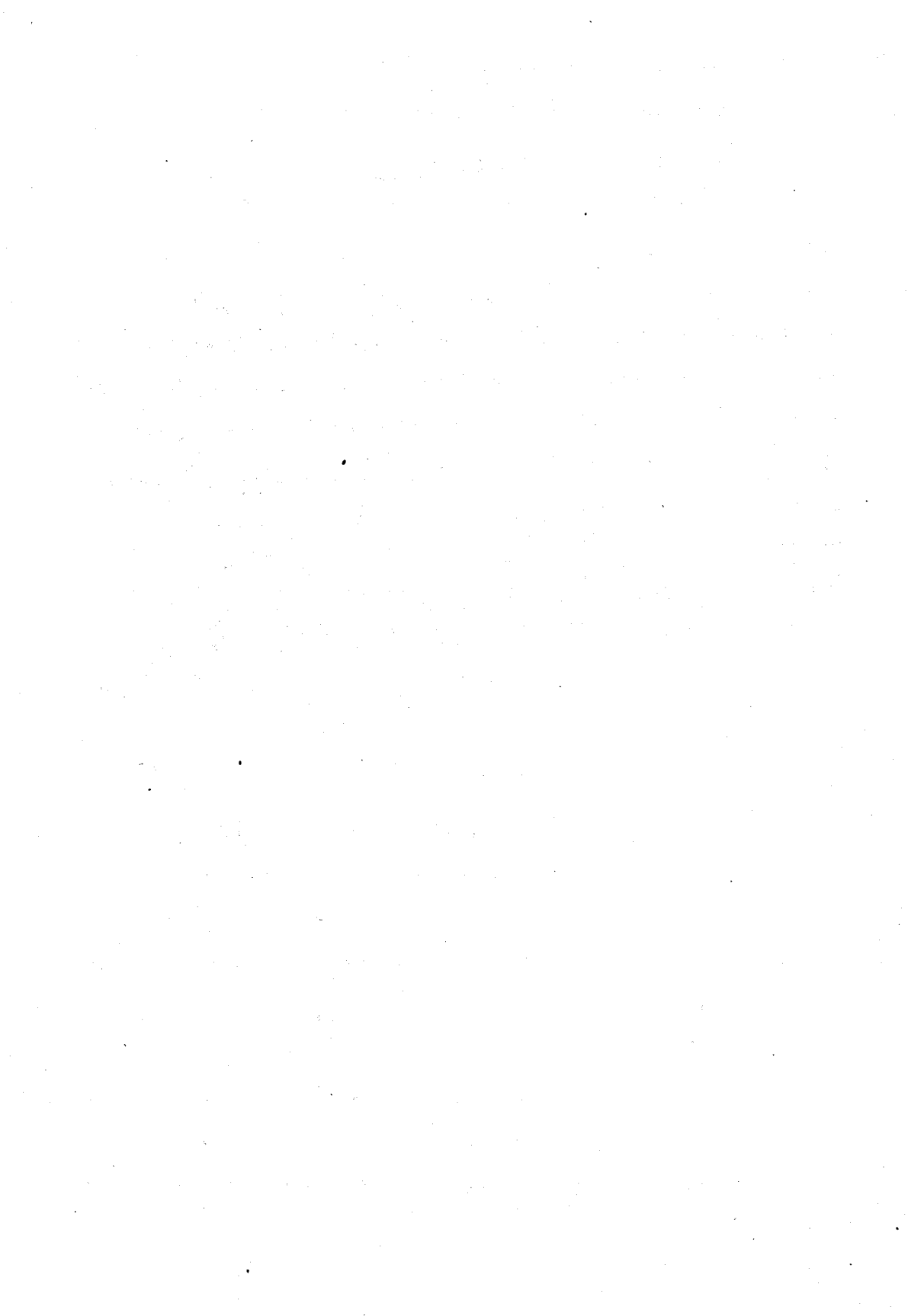
وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨ هـ. كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف.

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلاً كبيراً، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبدالعزيز، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبدالعزيز أمير منطقة مكة المكرمة، حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩ هـ. وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بمدة لغات، وتنفيذاً لذلك ها هي ذي تضع بين يدي القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث، وهو بحث الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، من الجامعة السلفية بالهند لأنه الفائز بالجائزة الأولى، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأمين العام

لرابطة العالم الإسلامي

محمد بن علي الحركان



كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً. اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيراً.

وبعد، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦ هـ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامي، للبحث حول موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام - تنشيطاً للكاتبين، وتنسيقاً لجهودهم الفكرية، وإني أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان. فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار - هي المنبع الوحيد الذي تتفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري.

وإن من سعادي وحسن حظي أني أساهم في تلك المسابقة المباركة، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءاً على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ. وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره، حتى لا يتهالك في دياجم الظلمات، بل يحيا وهو من أمته، ويموت وهو من أمته، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته.

وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجي في مقالتي هذه: إني قبل أن آخذ في كتابة المقالة رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنباً التطويل الممل والإيجاز المخل، ولكني كثيراً ما رأيت في المصادر اختلافاً كبيراً في ترتيب الوقائع، أو في تفصيل جزئياتها، وفي مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث. ثم أثبت في صلب المقالة ما ترجع لدي بعد التحقيق. ولكن احتزرت عن إيراد الدلائل

والبراهين؛ لأن ذلك يفضي إلى طول غير مطلوب. نعم! ربما أشرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب ممن يقرأ المقالة، أو حين رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح.

اللهم قدر لي الخير في الدنيا والآخرة، إنك أنت الفنون الودود ذو العرش المجيد.

الجمعة المباركة ١٣٩٦/٧/٢٤ هـ

١٩٧٦/٧/٢٣ م

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس الهند

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله. وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها. ونظراً إلى ذلك نقدم فصلاً عن أقوام العرب وتطورتها قبل الإسلام، وعن الظروف التي بعث فيها محمد ﷺ.

موقع العرب:

العرب لغة: الصحارى والقفار، والأرض المجذبة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب. كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض، واتخذوها موطناً لهم.

جزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقاً الخليج العربي وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية، وجنوباً بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي، فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوا ويسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم. ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً في جميع الشؤون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم. وتلتقي بها برابراً. فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة أفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لنارة أوروبا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق الأوسط

والأدنى. وتفضي إلى الهند والصين، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بجزراً، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً.

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطاً للأمم ومركزاً لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

١ - العرب أنبأثة: وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها.

٢ - العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتسمى بالعرب القحطانية.

٣ - العرب المستعربة: وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل، وتسمى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة - وهي شعب قحطان - فمهدها بلاد اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبتونها فاشتهرت منها قبيلتان:

أ - حمير، وأشهر بطونها زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك.

ب - كهلان، وأشهر بطونها همدان، وأنمار، وطيه، ومذحج، وكندة، ولخم، وجدام، والأزد، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام.

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن، وانتشرت في أنحاء الجزيرة، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام.

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبتون حمير أدت إلى جلاء كهلان، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

١ - الأزد: وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقباء.

فساروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلوها الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال. وهاك تفصيل الأماكن التي سكنوا فيها بعد الرحلة نهائياً: عطف ثعلبة بن عمرو من الأزدي نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذي قار، ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها. ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.

وانتقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه في ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر الظهران، ثم افتتحوا الحرم ففطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

ونزل عمران بن عمرو في عمان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أزد عمان، وأقامت قبائل لفر بن الأزدي بتهامة، وهم أزد شنوءة.

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغسانية. نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل تنقلهم إلى الشام.

٢ - لحم وجذام: وكان في اللخميّين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة.

٣ - بنو طيء: ساروا بعد مسير الأزدي نحو الشمال حتى نزلوا بالجليلين أجا وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عُرفَ الجبلان بجيلي طيء.

٤ - كندة: نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بمحضر موت، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجد، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فُتيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها اليه - وهي قضاة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق^(١).

وأما العرب المستعربة فأصل جدتهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من بلدة يقال لها «أر» على الشاطيء الغربي من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد^(٢).

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١١/١ - ١٣ وقلب جزيرة العرب ص ٢٣١ إلى ٢٣٥ - واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجع عندنا في هذا الباب من حيث الدليل.

(٢) تمهيد القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ١/٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها^(١) وقد قدم مرة إلى مصر، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً بزواجه سارة ولكن الله ردّ كيده في نحره، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله، حتى أخذها ابنته^(٢) هاجر، اعترافاً بفضلها، وزوجتها سارة إبراهيم^(٣).

ورجع إبراهيم إلى فلسطين، ورزقه الله من هاجر إسماعيل، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بها إلى الحجاز، وأسكنها بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعها عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء، وهنالك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت قوتاً لها وبلاغاً إلى حين. والقصة معروفة بطولها^(٤).

وجاءت قبيلة يمانية - وهي جرهم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة. وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، قبل أن يثيب، وأنهم كانوا يبرون بهذا الوادي قبل ذلك^(٥).

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات، إلا أن المصادر التاريخية حفظت أربعة منها.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام باستأل هذا الأمر ﴿فلما أسلمها وتله للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم. قد صدقت الرؤيا، إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا هو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم﴾ [١٠٣ - ١٠٧: الصافات].

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة،

(١) نفس الشاهد في سفر التكوين ١٢: ٥. (٢) المعروف أن سارة كانت امرأة كنعانية ولكن حقق الدكتور الكبير العلامة القاضي محمد سلمان المنصور فوري أنها كانت امرأة وكنت ابنة فرعون. انظر رحمة اللطائف ٢/٣٦ - ٣٧.

(٣) ناسخ من صحيح البخاري ١/٤٧٤.

(٤) انظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ١/٤٧٤ - ٤٧٥.

وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحق، لأن البشارة بإسحق ذكرت بعد سرد القصة بتامها.

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشب إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعاً^(١) وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم، وأنفسهم وأعجبهم زوجته امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالها، فشكت إليه ضيق المشقة فأذن لها أن تأسعها أن يفر عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى، وهي ابنة مضاض بن عمرو، كبير جرهم وسيدهم^(٢).

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا الزواج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالها فأثنت على الله، فأوصى إلى إسماعيل أن يشب عتبة بابه.

وجاء مرة ثالثة فلتقي إسماعيل وهو يبصر نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، الولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنى الكعبة، ورفع قواعدها، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله.

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثني عشر ولداً ذكراً^(٣) وهم: نابت أو بنالوط، قيذار، وأدبائيل، ومبشام، ومشاع، ودوما، وميشا، وحدث، وبيتا، ويطور، ونفيس، وقيدمان، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها. ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيذار.

وقد ازدهرت حضارة الأنباط في شمال الحجاز، وكونوا حكومة قوية دان لها من أطرافها، واتخذوا البتراء عاصمة لهم، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان فقصوا عليهم، وقد رجح السيد سليمان الندوي بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن

(٣) نفس المصدر.

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠.

(١) ج ١/ ٤٧٥-٤٧٦.

ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقاياهم في تلك الديار (١).

وأما قي دار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمك ويقول: كذب النسابون، فلا يتجاوزة (٢). وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان، مضعفين للحديث المشار إليه، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليهما السلام أربعين أباً بالتحقيق الدقيق (٣).

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار - فيل لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأمار وربيعة ومضر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: أسد بن ربيعة، وعنزة، وعبد القيس، وابنا وائل - بكر، وتغلب - وحنيفة وغيرها.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قيس عيلان بن مضر، وبتون إلياس بن مضر. فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو غطفان، ومن غطفان: عبس وذبيان، وأشجع وغني بن أعصر.

ومن إلياس بن مضر: تميم بن مرة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة وبتون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، من أشهرها: جمح، وسهم، وعدي، ومخزوم، وقيم، وزهرة، وبتون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزي بن قصي، وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم ﷺ (٤).

قال ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل

(١) انظر تاريخ أرض القرآن ٧٨/٢ إلى ٨٦.

(٢) انظر الطبري ج ١٩١/٢ - ١٩٤ - والأعلام ٦/٥.

(٣) رحمة للعالمين ج ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ٨، ٧/٢.

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٥، ١٤/١.

كنانة، واصطفي من بني كنانة قريشاً، واصطفي من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تختير القبائل، فجعلني من خير القبيلة، ثم تختير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»^(٢).

ولما تكاثروا أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب، متتبعين. مواقع القطر ومنايات العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وأخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر، قصبة اليمامة. وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق، فالأبلة فهيت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تسكن بكرأ. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين، إلى ما ينتهي إلى الجرة.

وسكنت ثقيف بالطائف، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس، وهي على الجادة بين مكة والبصرة.

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، بينهم وبين تيماء ديار بخت من طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران.

وبقي بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب، فجمعهم، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم^(٣).

(١) رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع. باب فضل نسب النبي ﷺ ٢٤٥/٢ والترمذي ٢٠١/٢.

(٢) رواه الترمذي، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ٢٠١/٢.

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٥/١ - ١٦.

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام، رأينا أن نضع صورة مصفرة من تاريخ الحكومة والإدارة والملل والأديان في العرب، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام.

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين: قسم منهم ملوك متوجون، إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر، لم يملكوا من الحكم والامتياز، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال. وربما كانت لبعضهم تبعية للملك متوج، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن، وملوك آل غسان، وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب الغاربة قوم سبأ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات «أور» بمخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد. ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد.

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

١ - القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ ق.م، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن بـ «مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم بلدة «صرواح» التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة «مأرب» وتعرب باسم «خريبة» وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل العرب وخارجها.

٢ - منذ سنة ٦٥٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م وفي هذا الزمن تركوا لقب «مكرب» وعرفوا بملوك سبأ، واتخذوا «مأرب» عاصمة لهم بدل «صرواح» وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلاً من صنعاء إلى جانبها الشرقي.

٣ - منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ م، وفي هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ، واتخذت بلدة «ريدان» عاصمة لها بدل «مأرب». ثم سميت بلدة «ريدان» باسم ظفار، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من «يريم» وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير؛ لبسط سيطرة الأنباط في شمال الحجاز أولاً، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمال الحجاز ثانياً، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً. وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة.

٤ - منذ سنة ٣٠٠ م إلى أن دخل الإسلام في اليمن. وفي هذا العهد توالى عليهم الاضطرابات والحوادث، وتتابعت الانقلابات، والحروب الأهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم. ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن، وبمعاونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلثات في سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠م أو ٤٥١م. وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفي سنة ٥٢٣م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً. ولما أبوا أخذ لهم الأخدود وألقاهم في النيران، وهذا للذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ الآيات، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أمبراطور الرومان على بلاد العرب، فقد حرضوا الأحباش، وهبوا لهم الأسطول البحري، فتزل سبعون ألف جندي من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانية، بقيادة أرباط سنة ٥٢٥م، وظل أرباط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة - أحد قواد جيشه - وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة، وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل.

وبعد وقعة الفيل استنجد الهانبيون بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥م بقيادة معد يكر بن سيف ذي يزن الحميري، واتخذوه ملكاً لهم، وكان معد يكر ببقى معه جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه، فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولى كسرى عاملاً

فارسياً على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨ م. وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن^(١).

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ - ٥٢٩ ق.م) ولم يكن أحد يناوئهم، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق.م فهزم ملكهم دارا الأول، وكسر شوكتهم، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون، واحتلوا جزءاً من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحوهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية.

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه، وكان هذا سبباً في رحيل قضاة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار.

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقي عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالى سنة ٢٦٨ م.

وبعد موت جذيمة ولي الحيرة عمرو بن عدي بن لفر اللخمي، أول ملوك اللخمين - في عهد كسرى سابور بن أردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخمين تتوالى على الحيرة حتى ولي الفرس قباذ بن فيروز، وفي عهده ظهر مزدك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء

(١) انظر في تفصيل ذلك: تفهيم القرآن ٤/١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، وتاريخ أرض القرآن ج ١/ من ص

١٣٣ إلى نهاية الكتاب، وفي تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وقد قال بعض الكتاب

عن هذه التفاصيل: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾.

السماء - يدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه ذلك حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جداً ، فقتل المزدك وكثيراً ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سراً على هانيء بن مسعود سيد آل شيان ، فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولي على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي ، وأمره أن يرسل إلى هانيء بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده ، فأبى ذلك هانيء حمية ، وأذن الملك بالحرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازبة كسرى وكتائبه في موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذي قار ، وانتصر فيها بنو شيان ، وانهزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس ابن قبيصة على الحيرة .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكماً فارسياً ، وفي سنة ٦٣٢م عاد الملك إلى آل لحم ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمرور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين^(١) .

الملك بالشام :

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعة ، فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكاً ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهاية تقريباً ،

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذي غلبوا الضجاعة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملكاً على عرب الشام، وكانت قاعدتهم دومة الجندل، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالاً للملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١).

الإمارة بالحجاز:

ولي إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته^(٢). وتوفي وله ١٣٧ سنة^(٣). ثم ولي إثنان من أبنائه نابت ثم قيدار، ويقال للعكس، ثم ولي أمر مكة بعدها جدّهما مضاض بن عمرو الجرهمي، فانتقلت زعامة مكة إلى جدّهم، وظلت في أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء^(٤).

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلاً لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً^(٥).

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق.م)، وذهب برمياة النبي بمعد إلى الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معهد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً^(٦).

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضاقّت أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة^(٧)، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين، ويشير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة

(١) نفس المصدر ٣٤/١، وأرض القرآن ٨٠/٢، ٨١، ٨٢.

(٢) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ - ٢٣٧.

(٣) سفر التكوين ١٧: ٢٥.

(٤، ٥) قلب جزيرة العرب ص ٢٣٠ - ٢٣٧، وابن هشام ١١١/١ - ١١٣، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام.

(٦) رجة للمالين ٤٨/٢.

(٧) قلب جزيرة العرب ص ٢٣١.